الإقناع والاقتناع في شعر أبي فراس الحمداني – مقاربة تداولية

أ /عمار لعويجي.
جامعة 20أوت 1955– سكيكدة.

مقدمة:

الإقناع عملية كلامية تستهدف التأثير العقلي والعاطفي في المتلقي (القارئ) قصد تفاعله إيجابيا مع الخطاب، أما الاقتناع فهو فعل الأثر الناجم عن عملية الإقناع لدى المخاطَب متى توافرت الظروف، وتهيأت من لدن المتكلم(الكاتب) فيحدث الانسجام بين الرغبة الذاتية والإمكانات المتاحة والهدف المطلوب، ويمكن القول بأن الإقناع جهد اتصالي لساني بالدرجة الأولى مؤسس على قصد، ومخطط له سلفا وفق أهداف معينة لاستمالة المتلقي وتعديل سلوكه ومواقفه الشخصية في ظروف مقامية معينة ولما كان الإقناع جهدا لغويا مقصودا ومؤسسا على استراتيجية منطقية دلالية، وآليات لغوية، وبلاغية معينة للإقناع والتأثير في الآخر، فإنه لا يتحقق فعلا إنجازيا موفقا إلا إذا كان المتكلم ممتلكا لكفاءة تواصلية إقناعية متميزة يكون نتاجها كسب تأييد الآخرين لرأيه وما يعرضه عليهم والمنهج التداولي في تحليل النص الشعري،يعين الباحث في الكشف عن الآليات الإقناعية بأبعادها اللغوية والتفاعلية والموقفية لكل من المتكلم والمخاطَب .

إذا كان الإنسان يقيم تواصلا ذاتيا بينه وبين نفسه في تفكيره وتقريره، فإنه بالضرورة سيتواصل مع غيره عن طريق وسائل عدّة، ويكون هذا التواصل من أجل الإفادة، ويركز العلماء العرب على مبدأ (الإفادة) الذي يقيم التواصل بين المتكلم والسامع، بل من أجله يقام التواصل وهو ما نراه عند التداوليين الذين ركزوا على مبدأ الإفادة والسياق.

والتأثير في المخاطَب لابد أن يكون بطريقة منظمة، يستجمع فيها المرسل كل ما يملك من وسائل مختلفة للتأثير في آراء الآخرين وأفكارهم، بحيث يجعلهم يقبلون ويوافقون على وجهة النظر في موضوع معين، يقول عبد القاهر الجرجاني:«فوازن بين قولك للرجل وأنت تعظه: (إنّك لا تجزي على السيئة حسنة فلا تغرّ نفسك وتُمسك).

وبين أن تقول في أثره:(إنّك لا تجني من الشوك العنب، وإنما تحصد ما تزرع)»[1] فإنّ هذا المثل الذي تقوله للمخاطَب هو أكثر وقعا في نفسه، وأبقى أثرا، لأنك قد أقمت عليه الحجة بما يوافق سلوكه من الأمثال وبذلك يكون اقتناعه بكلامك أكثر؛ أي تطابق التمثيل بالواقع فحين التكلم تتعين مراعاة فن القول لتصل إلى قلب المتلقي وعقله.

وقصد معالجة ظاهرتي الإقناع والاقتناع في شعر أبي فِراس،لابد من معرفة مدى التزام المخاطِب (الشّاعر)ببعض القوانين التي تجعل خطابه ممكنا،والتزامه الصريح من القول أو أنه التجأ إلى آليات جعلته يتوجه من الصريح إلى الضمني،وأن توظيفه الصريح كان بغرض إيصال بعض متضمنات القول المقصودة، وسنركز على بعض مبادئ التخاطب باعتبارها قوانين تسهم في جعل الخطاب ممكنا،والتأثير في المخاطَب واردًا.

أ- مبدأ التعاون(المشاركة):

الذي يعدّ أهم مبدأ تعتمد عليه نظرية الأفعال الكلامية حيث يشكل هذا المبدأ عند غرايس(Grise)العمود الفقري للنشاط الكلامي إذ إنه يمكّن المتخاطبين من ضمان عدم انقطاع التواصل. لذلك فإن كل طرف من الخطاب يعترف لنفسه وللآخر بالحق في التناوب على الكلام.ولعل انعدام التفاهم بين المتخاطبين مرجعه غياب ذلك الاعتراف المتبادل منذ البداية.ونلاحظ أن هذا المبدأ، وما يتفرع عنه من أحكام هو ذو مصدر اجتماعي وأخلاقي إذ يساعد في التحكم العضوي في العلاقات الاجتماعية،حيث نجد أن طغيان المصالح الخاصة بين المتخاطبين قد يعرض هذا المبدأ إلى خطر.

وبالتالي نقول إن التبادل الكلامي يتوقف على الفائدة التي يجنيها كل من المتكلم والمستمع أثناء الخطاب: «إذا كان للشخصين فائدة في ممارستهما للكلام فإن كل طرف منهما سيجني ثمار ذلك إذا تحقق التبادل. وعكس ذلك مآله الفشل،لذا فإن هناك اشتراكا في الربح والخسارة،وهذا ما يسمح لنا بالقول إن تبادل الكلام نشاط اجتماعي متحقق»[2]

«وهذا المبدأ يفرض على الأشخاص المتخاطبين احترام القاعدة التي تواضعوا عليها وهو يشبه إلى حد بعيد وضع الشاهد أمام القاضي إنه مجبر على الإجابة لأنه إذا رفض ذلك

سيكون مآله ما لا تحمد عقباه. إذ يتعرض لردع من قبل القاضي قد يؤدي به إلى السجن ولكن هذا الردع يختلف عن ذلك الذي يكون إذا رفض الإجابة عن سؤال أراد فيه صاحبه معرفة مكان محطة أو عنوان شخص...، والردع في هذه الحال قد يكون نفسيا ويكون بذلك قد فصل ما سماه البعض الرابط الاجتماعي للكلام »[3]

انطلاقا من هذا المبدأ، وضع غرايس(Grise) أربعة مبادئ، وهي بمثابة قواعد تساهم في تواصل النشاط الكلامي (الخطابي) وتتمثل في:

-(حكم المناسبة= قانون الإفادة): يكون المخاطِب مضطرا لأن يكون خطابه مناسبا للمقام (موضوع الخطاب) وهو ما يصطلح عليه بـ(قانون الإفادة).

-(حكم الصدق = قانون الصدق): يجب أن يكون المخاطِب صادقا فيما هو ذاهب إليه أي يتجنب الكذب، مقرا بالمعلومات التي يتلفّظ بها، (قانون الصدق).

-(حكم الكمية= قانون الإخبارية):يتمثل في إعطاء المخاطِب للمتلقي القدر اللازم من المعلومات ليتحقق الخطاب،ويجب عليه أن يكون أكثر إخبارا، وهذا ما يدعى(قانون الإخبار).

-(حكم البيان= قانون الشمولية): ينبغي على المخاطِب بموجب هذا الحكم أن يكون واضحا متجنبا للغموض، يتحلى بالإفصاح والإيضاح (قانون الشمولية).

فأهم شيء يركز عليه غرايس في مبدأ التعاون؛ هو قدرة هذا المبدأ على توجيه أفعال المتكلم للدلالة على قصده، حيث يمارس ضغطا على المتلقي، وقيدا خطابيا ولو بسيطا من أجل توجيهه لفعل معين في المستقبل؛ لأن غاية ما يهم المتكلم هو تحقيق هدفه من الخطاب، وبُعد الاهتمام بالعلاقات وتساعد الاستراتيجية التوجيهية على إنجاز الأفعال، من خلال تطبيق مبدأ السلطة بين طرفي الخطاب ودرجة التفاوت فيما بينهما.

قال (ابنُ خالويه): وكتب (أبو فراس) إلى (سيف الدولة) وقد شخص من حضرته إلى منزله (بمنبج): « هذا كتابي أطال الله بقاء مولانا الأمير (سيف الدولة) من منزلي وقد وردْتُهُ وُرُودَ السالم الغانم، مُثْقل البطن والظهر، وَقرًا وشكرًا»[4].

فاستحسن الأمير بلاغته، ووصف براعته،فكتب إليه الشّاعر لمّا اتصل به ذلك.

وقال هذه الأبيات عند قدوم (سيف الدولة) إلى (منبج) فحمل إليه هدايا وودّعه إلى ولايته فكتب إليه من المنزل: [من مجزوء الكامل]

هَلْ لِلْفَصَاحَةِ، وَالسّمَا حَةِ والْعُلَى عَنِّي مَحِيدُ؟[5]

إِذْ أَنْتَ سَيِّدِي الَّذِي رَبّيْتَنِي وَأَبِي سَعِيدُ

فِي كُلِّ يَوْمٍ أَسْتَفِيـ دُ مِنَ الْعَلاَءِ، وَأَسْتَزِيدُ

وَيَزِيدُ فِيَّ إِذَا رَأَيْـ تُكَ فِي النَّدَى خُلُقٌ جَدِيدُ

وفي قصائد أبي فراس الحمداني نجد احتراما لمبدأ التعاون، من خلال وجود مناسبة القصيدة التي يوردها ابن خالويه، راوي الديوان قبل إيراد نص القصيدة، وذلك حسب الاتفاق المسبق على السير الذي يتوجه نحوه النص؛من حيث كون القصيدة مناظرة،أو عتابا أو جوابا عن سلوك معين، حتى وإن كان هذا الاتفاق ضمنيا، وهذا ما يدعو المتلقي القارئ إلى عدم الاستغراب من وجود نبرة عنيفة بين أبي فراس وسيف الدولة مثلا،فذلك يعود إلى أن سيف الدولة فتح المجال أمام الشاعر للدفاع عن نفسه، مع إمكانية الانفعال أثناء ذلك كما أن شعره ليس شعر تكسب؛لأنه ليس بحاجة إلى ذلك فهو الأمير الحاكم لمنبج وفعله لا يؤثر على سير العملية التواصلية لأنه في كل مرة يعود لاستعمال إستراتيجية تضامنية يعمل فيها على كسب المتلقي في نهاية القصيدة.

وبعث إلى (سيف الدولة) من الأسر يعزيه بأخته، قائلا: [من البسيط]

لأَشْرَكَنَّكَ فِي آللأوَاءِ إِنْ طَرَقَتْ كَمَا شَرِكْتُكَ فِي النَّعْمَاءِ وَالرّغَدِ

وقال، في رائيته التي مطلعها"لعل خيال العامرية زائر" : [من الطويل]

لَئِنْ كَانَ أَصْلِي مِنْ "سَعِيدٍ" نِجَارُهُ فَفَرْعِي"لِسَيْفِ الدّولَةِ"الْقَرْمِ نَاصِرُ

ب- قانون الإفادة:

إنّ هذا القانون، يعتبر المحور الذي تنتظم حوله القوانين الأخرى، لأن الكلام كله يتوقف على مدى استفادة المستمع من كلام المتكلم، يقول ويلسون (Wilson)و سبربر (Sperber): «إننا نعترف بأن كل الأحكام تنضوي تحت مسلمة الإفادة، التي هي أكثر دقة وصحة من الأحكام الأخرى»[6].

إنّه بتطبيق هذا القانون يكون المتلقي في إثراء لمعلوماته، ومدركا لها، وما يستنتج من هذا القانون أنّ الخطاب المفيد هو ذلك الذي ينجر عنه نتائج مفيدة للسامع، وفي هذه الحال يستند المستمع على قدراته الاستنتاجية، وعلى ما توفره له عناصر السياق.

مع العلم،كما يذهب إلى ذلك الباحثان السابقان: أن قانون الإفادة يجعل القول مفيدا بغض النظر عن كونه مخبرا أو غير مخبر، فهو يثري معلومات ومدركات المستمع، ويجعله يعدل باستمرار في مدركاته، فالإفادة هي«في علاقة مباشرة بالنتائج التداولية التي تفرض على المستمع وفي علاقة عكسية بالثراء الإخباري الذي يحتويها»[7].ومن النتائج التي يتمحور حولها مفهوم الإفادة، حسب أوركيوني (Orecchioni):

– أن القول المفيد هو ذلك الذي تنجر عنه نتائج عملية تكون في فائدة المستمع.

– النتائج الحجاجية: وهي التي تميز القول الذي يمثل قاعدة لاستخلاص حجاج بإمكانه تغيير مخزون معارف ومعتقدات الشخص.

– الأقوال التي يحكم على أنها مثيرة (للانتباه).

– أن يكون ما يقال في صلة بسياق المحادثة.

وفي شعره ما يحقق (حكم المناسبة= قانون الإفادة) وذلك من خلال جعل كلامه مناسبا للمقام الذي يرد فيه بتقديم نتائج يستفيد منها المتلقي تتمثل فيما يسوقه من خبرة بالحياة وتجربة وباع في القتال والتدبير والقيادة والصبر عند الشدائد، كل هذا يمنحه أبو فراس لسامعه في قالب

حكمة تلخص تجربة ثريّة، تثير انتباه مخاطبه وتغير مخزون معارفه ومعتقداته الشخصية، ومن أمثلة ما ورد في قصائده، قوله: [من الطويل]

وَلَكِنْ إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَى امْرِىءٍ فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ،وَلاَ بَحْرُ!

هُوَ الْمَوْتُ؛ فَاخْتَرْ مَا عَلاَ لَكَ ذِكْرُهُ فَلَمْ يَمُتِ الإِنْسَانُ مَا حَيِيَ الذِّكْرُ

وَلاَ خَيْرَ فِي دَفْعِ الرّدَى بِمَذَلَّةٍ كَمَا رَدَّهَا يَوْمًا بِسَوْءَتِهِ "عمْرُو"

وقد جاءت هذه الحكم وليدة التجارب التي مرّ بها الشاعر في حياته، كما أنها تنمّ عن شعوره الصّادق، اتجاه من يخاطب ليثير انتباهه إلى الحياة الفانية، والموت الآنية، والخير كلّ الخير في مراعاة حسن الخاتمة.

وقوله في قصيدة أخرى: [من الوافر]

أظَنّاً؟ إنَّ بَعْضَ الظَّنِ إِثْمٌ! وَمَزْحًا؟رُبَّ جِدٍّ فِي مُزَاحِ!

اقتباسا من قوله تعالى:﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات:الآية12].

وقوله: [من الكامل]

أُقْرُوا مِنَ "الْقُرْآنِ" مَا فِي فَضْلِهِ! وَتَأَمَّلُوهُ، وَافْهَمُوا فَحْوَاهُ!

لَوْ لَمْ تُنَزّلْ فِيهِ إِلاَّ: "هَلْ أَتَى" مِنْ دُونِ كُلِّ مُنَزّلٍ، لَكَفَاهُ

مصداقا لقوله تعالى:﴿هَلَ آتى عَلَى الإِ نْسَنِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يكُنْ شَيْئاً مَّذْكُورًا﴾

[الإنسان:الآية1]

وفي نفس القصيدة التي يتحدث فيها عن أهل البيت–عليهم السلام، يقول:

[من الكامل]

أَنَسِيتُمْ، " يَوْمَ الكِسَاءِ" وَأَنَّهُ مِمّنْ حَوَاهُ مَعَ "النَّبِيِّ"كَسَاهُ

يَارَبِّ! إِنِّي مُهْتَدٍ بِهُدَاهُمُ لاَ أَعْتَدِي، يَوْمَ الْهُدَى بِسِوَاهُ

أَهْوَى الَّذِي يَهْوَى"النَّبِيّ"وَآلَهُ أَبَدًا،وَأَشْنَأُ كُلَّ مَنْ يَشْنَاهُ

وفي بيت يتضمن حكمة من قصيدة أخرى، يقول : [من الطويل]

يَقُولُونَ:"جَنِّبْ"! عَادَةٌ مَا عَرَفْتُهَا؟ شَدِيدٌ عَلَى الإِنْسَانِ مَا لَمْ يُعَوّدِ

وفي مجال الرثاء ومراعاة لكل مقام مقال، يقول: [من الكامل]

وَإِذَا الْمَنِيّةُ أَقْبَلَتْ لَمْ يَثْنهَا حِرْصُ الْحَرِيصِ،وَحِيلَةُ الْمُحْتالِ

وقال: [من الطويل]

وَإِنَّ الْبَقَا لِلَّهِ فِي كُلِّ مَطْلَبٍ وَإِنَّ الْفَنَا لِلْخَلْقِ،وَالْخَلْقُ ذَاهِبُ

وَأَسْأَلُهُ حُسْنَ الْخِتَامِ فَإِنَّنِي لِرَحْمَتِهِ فِي الْبَدْءِ وَالْخَتْمِ طَالِبُ

والأمثلة عديدة بين ثنايا أشعاره، تفيد القارئ (المتلقي) في حياته لما فيها من حكم واقتباسات من القرآن ،الحديث وديوان العرب.

ت–قانون الصدق:لا ينبني الخطاب السّوي أساسا على الصدق المطلق،إنّ المقام قد يفرض على المتكلم في أحيان عديدة أنْ لا يكون صادقا تماما لأنه(لكل مقام مقال)وليس كل ما يعرف يقال.

يقول أبو حامد الغزالي(ت505هـ):« ومن جملتها* أن تسأل غيرك عما لا يعنيك...فإن تسأل غيرك عن عبادته، فتقول له: هل أنت صائم؟ فإن قال: نعم، كان مظهرا لعبادته فيدخل

عليه الرياء، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر، وعبادة السر تفضلُ عبادة الجهر بدرجات وإنْ قال:لاَ.كان كاذبًا، وإن سكت كان مستحقرا لك وتأذيت به وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه، فقد عرَّضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو التعب في حيلة الدفع »[8].

ويستحسن الكذب في أحوال كثيرة من الدين، فيواصل(الغزالي)قوله في هذه النقطة: « اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه، بل لما فيه من ضرر على المخاطَب أو على غيره، فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه، فيكون جاهلا وقد يتعلق به ضرر غيره ورب جهل فيه منفعة ومصلحة، فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه وربما كان واجبا.يقول(ميمون بن مهران):الكذب في بعض المواطن خير من الصدق. ويقول أيضا: الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق، فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا، وواجبا إن كان المقصود واجبا»[9]

ومهما يكن، فإن الكذب، وإن كان شيئا استثنائيا، فإنه سلوك مندرج في الخطاب ويخضع لمعيار الصدق: «لا يمكن لنا أن نتصور لغة بعكس هذه القاعدة»[10] إذ لا يمكن إخضاع الصدق لمعيار الكذب لأن الكذب لا معيار له.

وكنتيجة لما قيل فإن الأساس في الخطاب أن يقول المتكلم ما يعتقده صدقا -وهي القاعدة العامة- وأن يكون نفسه ضامنا للصدق فيما يقول.

وقد أورد أوستن (Austin) بعض العناصر التي يُخترق فيها الصدق في الخطاب وهي (العواطف، الأفكار، القصد) حيث تحقق أفعال الكلام، وينعدم فيها عنصر الصدق.

و(أبو فراس الحمداني)القائد والأمير الشّاعر الصّدوق، بذل النفس رخيصة في سبيل الذود عن حصن منبج الذي ولاّه سيف الدولة عليه، والصدق من أبرز مظاهر التعبير عن العواطف والتجارب النفسية كالأسر مثلا،فالشاعر شارك مخاطَبه همومه بصدق،خاصة إذا كان المخاطَب هو والدته،ومن القصائد المعبرة عن حقيقة ما يجول في خاطره وصدق أحاسيسه،قصيدته التي

بعث بها إلى أمه،وقد ثَقُل من الجراح، التي نالته،وهو أسير والتي يقول فيها: [من الطويل]

مُصَابِي جَلِيلٌ،وَالْعَزَاءُ جَمِيلُ وَظَنِّي بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ

جِرَاحٌ وَأَسْرٌ ، وَاشْتِيَاقٌ،وَغُرْبَةٌ أُحَمّلُ!إِنِّي، بَعْدَهَا، لَحَمُولُ!

وَإِنِّي، فِي هَذَا الصّبَاحِ،لَصَالِحٌ وَلَكِنّ خَطْبِي فِي الظَّلاَمِ جَلِيلُ

وَمَا نَالَ مِنِّي الأَسْرُ مَا تَرَيَانِهِ وَلَكنّنِي دَامِي الْجِرَاحِ عَلِيلُ

جِرَاحٌ، تَحَامَاهَا الأُسَاةُ، مَخُوفَةٌ وَسُقْمَانِ: بَادٍ، مِنْهُمَا،ودَخِيل

وَأَسْرٌ أُقَاسِيهِ، وَلَيْلٌ نُجُومُهُ أَرَى كُلَّ شَيْءٍ، غَيْرَهُنَّ، يَزُولُ

تَطُولُ بِي السَّاعَاتُ وَهْيَ قَصِيرَةٌ وَفِي كُلِّ دَهْرٍ لاَ يَسُرُّكَ طُولُ!

وقال، في مفارقة أخيه الكبير: [من الكامل]

مَا زَالَ مُعْتَلِجَ الْهُمُومِ بِصَدْرِهِ حَتَّى أَبَاحَكَ مَا طَوَى مِنْ سِرِّهِ

أَضْمَرْتُ حُبّكَ، والدُّمُوعُ تُذِيعُهُ وَطَوَيْتُ وَجْدَكَ،والْهَوَى فِي نَشْرِهِ

وقال وقد جاء العيد وهو في الأسر: [من السريع]

يَا عِيدُ! مَا عُدْتَ بِمَحْبُوبِ عَلَى مُعَنًّى القَلْبِ مَكْرُوب

يَا عِيدُ! قَدْ عُدْتَ عَلَى نَاظِرٍ عَنْ كُلِّ حُسْنٍ فِيكَ، مَحْجُوبِ

يعبّر الشّاعر عن حزنه وألمه ودورة العيد عليه ويخاطبه بأي حال عدت يا عيد حيث يتواصل معه ومن خلاله يخبر الآخر المقصود بالخطاب عن معاناته قصد افتدائه،وهو ما يعرف لدى غرايس (Grise) بالاستلزام المحادثاتي أو التخاطبي.

ث– قانون الإخبار والشمولية:

يرتبط قانون الشمول بقانون الإخبارية؛ لأن الشمول يكون عند الإخبار، وهما يخضعان كلية لقانون الإفادة، وهذه القوانين تتحرك وفق النسق التالي:«يجب إعطاء الخبر بأقصى ما يحتويه من معلومات ولكن في حدود الإفادة، مع تجنب إعطاء كل شيء، لأنه قد يؤدي إلى إحداث أضرار لا حاجة للمتخاطبين بها، وبذا نتجنب السقوط في متاهات الحشو الذي يضرّ بالإفادة»[11]

ويخضع تحقيق قانون الشمول لواقع الخطاب: طبيعة معارف واهتمامات المتكلم وكذا سياق الخطاب ونوع الخطاب المتداول، أما قانون الإخبارية يمنع ترديد (ما قيل) ويعتبر ذلك حشوا، ما عدا في بعض الحالات التي يضطر فيها المخاطَب إلى إعادة الخبر لكي يربط ذهن المستمع الشارد أو لكي يربط ما يقول بما قال أو قيل، بسبب إطالته في الكلام وكذلك في ميدان التعليم يمكن الاستعانة بالحشو لإيصال الخبر أو المعلومة.

وفي أشعاره نستشف التزام الشاعر بحكمي الكمية والبيان، من خلال اهتمامه بنقل الخبر مع الاستعانة بالتوسع والاسترسال والتقرير والاستفهام، ذي الإجابات البيّنة، وفعلي الأمر والنصيحة المتحققين في ميدان الوغى كقائد حربي وأثناء حُكمه (منبج) وتسيير شؤونها، هذا ما نلمسه حين كان يفتخر أو يمدح أو يعاتب أو يشكو فإنه ينشئ قصائد طويلة، فهو يقصد إلى التفصيل في الإخبار؛ سواء أكان تعبيرا عن حكم الحمدانيين وبطولاتهم وعلى رأسهم (سيف الدولة) أو متكلما عن معاناته جراء الأسر وإصراره على الإخبار عما يدور في نفسه.

وقال، يفتخر، وقد بلغه أنّ الرّوم، قالت: ما أسرنا أحدًا لم نَسْلُبْ سلاحه غير (أبي فراس) في قصيدة طويلة، وذات شهرة وصيت، تغنت بها أم كلثوم فزادها اللّحن بُعدًا إيقاعيًا تداوليًا لدى سامعيها، يقول فيها: [من الطويل]

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ، شِيمَتُكَ الصّبْرُ أَمَا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلاَ أَمْرُ؟

بَلَى أَنَا مُشْتَاقٌ وَعِنْدِيَ لَوْعَةٌ وَلَكِنّ مِثْلِي لاَ يُذَاعُ لَهُ سِرُّ!

إِذَا اللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطْتُ يَدَ الْهَوَى وَأَذْلَلْتُ دَمْعًا مِنْ خَلاَئِقِهِ الْكِبْرُ

خاتمًا إيّاها، قائلا:

أَعَزُّ بَنِي الدُّنْيَا،وَأَعْلَى ذَوِي الْعُلاَ وَأَكْرَمُ مَنْ فَوْقَ التّرَابِ ولاَ فَخْرُ

ولمّا طال الأمر على والدته، خرجت من (منبج) إلى (حلب) وراسلت (سيف الدّولة) ووافق ذلك أنّ البطارقة قُيِّدُوا بـ(حلب) فَقُيِّدَ الشّاعر بِـ(خرشنة) ورأتِ الأمر قد عظُمَ فاعْتَلَّتْ من الحسرةِ، فبلغ ذلك (أبا فِراسٍ) فكتب إلى الملك: [من المنسرح]

يَا حَسْرَةً مَا أَكَادُ أَحمِلُهَا آخِرُهَا مُزْ عِجٌ، وَأوّلُـهَا!

عَلِيلَةٌ، بِالشَّامِ مُفرَدَةٌ بَاتَ، بِأَيْدِي الْعِدَا، مُعَلِّلُهَا

تَمْسِكُ أَحْشَاءَهَا عَلَى حُرَقٍ تُطْفِئُهَا،والْهُمُومُ تُشْعِلُهَا

إِذَا اطْمَأَنَّتْ–وَأَيْنَ؟– أَوْهَدَأَتْ عَنَّتْ لَهَا ذِكْرَةٌ تُقَلْقِلُهَا

ويمضي في آهاته واستفهاماته وتعجبه من موقف (سيف الدّولة) تجاه والدته،خاتمًا القصيدة، قائلا: لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ، قَبْلَ فَرْضِكَ ذَا نَافِلَةً عِنْدَهُ تُثَقِّلُهَا!

أما الوصول إلى إدراك طبيعة متضمنات القول لن يتم دون معرفة قوانين الخطاب بمعنى آخر إن فهم الجانب الضمني والخفي من الكلام يستلزم منا أن نكون على معرفة ضمنية بالقواعد التي من شأنها أن ينتظم بها الكلام، ففي أحيان كثيرة لا يعني الكلام ذلك الجانب التّصريحي بل يعني حمل المتلقي على التفكير في أمور تمّ التلميح إليها وليست بأمور غيبية لأنها متضمنة في الأقوال المصرّح بها، يلتجئ المخاطِب إلى عدم التصريح لاصطدامه بعوامل تستمد مشروعيتها من المجتمع بتقاليده وأعرافه وعاداته والتفاهم جانب مهم بين المخاطِب والمخاطَب لأنه من سلبيات متضمنات القول سوء التفاهم بين المتخاطبين،حيث يفترض في المخاطَب امتلاك القدرة على الاستنتاج قدرة على استنباط عدد من الآليات المرتبطة بقوانين منطقية وتجريبية،واستنتاج عدد من القضايا المستخلصة من القول ذاته،واستنتاج محتواها بالاستناد إلى ما يحيط به من أوضاع مختلفة.

وقد تكون التأدية الحسنة والإبلاغ الفعال هما الغاية في لجوء المتكلم إلى استعمال متضمنات القول، إذ يقال:(التلميح أبلغ من التصريح).

أ–القول المضمر: نمط من متضمنات القول، يرتبط بوضعية الخطاب، على عكس الافتراض المسبق الذي يحدد على أساس معطياته اللّغوية.

يقول جون سرفوني(J.Cervoni): «إن الطريقة الخطابية المستعملة لتأويل الأقوال المضمرة تقوم على التأكيد من أنها أخذت من معناها الجانبي»[12]فالشيء الذي يتدخل في التأويل ليس السؤال ماذا يقول المتكلم، ولكن لماذا يقوله في سياق معين؟ لذلك يجري التأويل على السؤال الذي يطرح حول التّلفّظ، وليس حول الملفوظ ذاته.

ففي قولنا:(اقترب فصل الصيف)، يمكن أن يؤول إلى:

– الاستعداد للحر الشديد.

– تحضير الملابس الخاصة بهذا الفصل.

– تهيئة مكيف الهواء...

فقد خرج الحديث عن معناه الحقيقي إلى معاني استنتاجيه ذهنية يجتهد المتلقي في التعرف عليها، معاني ذات طبيعة غير مستقرة توافق الحالة التي تصدر عنها، كما تؤدي بالمخاطِب إلى التّخفي وراء المعنى الجانبي.

ففي وضعية خطابية، يقول الشّاعر: [من الطويل]

وَمَا كُلُّ طَلاَّبٍ، مِنَ النَّاسِ، بَالِغٌ! ولاَ كُلُّ سَيّارٍ إِلَى الْمَجْدِ وَاصِلُ!

وَمَا الْمَرْءُ إِلاَّ حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ وَإِنِّي لَهَا،فَوْقَ السِّمَاكَيْنِ جَاعِلُ

القول المضمر: ليس كل ما يتمنّاه المرء يدركه،وسعِدَ من عرف قدر نفسه.

ب–الافتراض المسبق: وهو النمط الثاني من متضمنات القول، ذو طبيعة لسانية بمعنى أنه يتم إدراكه عن طريق العلامات اللغوية التي يتضمنها القول.

تقول أوركيوني(Orecchioni):«هو تلك المعلومات التي لم يفصح عنها، فإنها وبطريقة آلية مدرجة في القول الذي يتضمّنها أصلا بغض النظر عن خصوصيته »[13]

ويعرفه ديكرو(Ducrot)بقوله:«هو العنصر الدلالي الخاص بالقول أو تحويله إلى استفهام: هل (أ)؟ أو إلى نفي: لا (أ)»[14]

مثال: أ = توقف التلميذ عن القراءة.

تحويله إلى الاستفهام يعطينا ما يلي:

(هل توقف التلميذ عن القراءة؟).

ثم نفيه: (لم يتوقف التلميذ عن القراءة).

هذه التحويلات تظهر لنا شيئا ضمنيا وجامعا بين الأقوال الثلاثة، وهو:

د– كان التلميذ يكتب. القول (د) هو: الافتراض المسبق،إذ تمكنا من معرفة حال التلميذ بمجرد تلفظ المتكلم بِ(أ)،وهذا يسميه ديكرو(Ducrot) بالقول المقر(من أقرّ).

من الممكن وصف الافتراضات المسبقة على أنها أفعال كلامية افتراضية، فهي في نفس درجة الأمر والاستفهام...فلو تلفظنا بِ(افتح الكتاب) فلا بد أن يكون له تأثير على المستمع(المخاطَب) ولهذا الأخير القدرة على الطاعة وتأويل القول،بمعنى فتح الكتاب الذي هو مغلق مسبقا،ولا تُسند وظيفة الآمر إلا لمن وجد في وضع يسمح له بإصدار الأوامر...

ومن أثر متضمنات القول، نورد بعض الأبيات التي تخدم هذا المنحى التداولي بين الشاعر ومخاطبيه، يقول في قصيدته الرائية:

[من الطويل]

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي، إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ "وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ، يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ"

الاستلزام الحواري: مكانة الأمير الشّاعر والفارس المقدام بين أهله وعشيرته.

وكتب إلى (سيف الدولة) يعزيه بابنه(أبي المكارم): [من البسيط]

يَبْكِي الرِّجَالُ وَ"سَيْفُ الدِّينِ"مُبْتَسِمٌ حَتَّى عَن ابْنِكَ تُعْطَى الصّبْرَ يَاجَبَلُ!

الاستلزام التخاطبي :قوة وتحمل وصبر سيف الدولة، رغم أن الميت (فلذة كبده) مما يوحي على صبره نحو ابن عمه وصهره السجين عند الروم.

وقال، يذكُر غزواته (بخرشنة) وقد مرَّ بها أسيرًا: [من مجزوء الكامل]

إِنْ زُرْتُ "خَرَشَنَةَ" أَسِيرَا فَلَكَمْ أَحَطْتُ بِهَا مُغِيرَا؟

ففي العبارة (فَلَكَمْ أحطتُ) افتراض مسبق على أن أبا فراس زار (خرشنة) عديد المرّات محاربا، قبل نزوله بها أسيرا.

وعلى كل فإن الشيء الذي يتدخل في التأويل، ليس التساؤل القائل: ماذا يقول الشاعر؟إنما: لماذا يقول الشاعر ما يقول في هذا السياق بالذات؟ وبالتالي فتأويل الأقوال المضمرة يقف على مستوى الحديث لا الكلام ذاته؛ أي (مستوى الخطاب).

عمل سيرل(J.Searle) على تعميق نظرية أفعال الكلام بعد أستاذه أوستن(Austin) وقد اهتمّت هذه النّظرية في لبّ فلسفتها الدّلالية بالمضامين والمقاصد التّواصلية، حيث تعدّدت أقسام أفعال الكلام لكن أهم ما يميزها جميعا أنّها تقوم على مبدأ حصول الفعل في الواقع، وكيفية أدائه لإحداث سلوك مَا لدى المتلقي أو تعديله.

ا.الأفعال الإيقاعية: وهي التي تتحدد دلالتها بمجرد النطق بها، حيث يكون إيقاع الفعل فيها موحيا بالدلالة المقصودة في الوجود. ومن شروطها، نسبتها إلى المتكلم، وزمنها الحاضر أو

المستقبل، نحو:الوصية، الدعاء، والرجاء، الإقرار، الشكر، التحية، القسم... وغيرها ومن شواهدها:

-أفعال الدعاء والرجاء«الرجاء: وهو تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل»[15] نحو قوله: [من الطويل]

وَأَسْأَلُهُ حُسْنَ الخِتَامِ فَإِنَّنِي لِرَحْمَتِهِ فِي الْبَدْءِ وَالْخَتْمِ طَالِبُ

لَعَلَّ خَيالَ العَامِرِيَّةِ زَائِرُ فَيُسْعَدَ مَهْجُورٌ، وَيُسْعَدَ هَاجِرُ!

[من الكامل]

وَلَقَدْ أَبِيتُ، وَجُلُّ مَا أَدْعُو بِهِ حَتَّى الصّبَاحِ،وَقَدْ أَقَضّ الْمَضْجَعُ:

لاَ هُمَّ إنّ أَخِي لَدَيْكَ وَدِيعَةٌ مِنِّي وَلَيْسَ يَضِيعُ مَا تُسْتَوْدَعُ!

تشترك أفعال هذه الأبيات في غرض واحد، هو الدعاء، وهو محصولها الدلالي في كل بيت لكن منها ما ورد بصيغ صريحة للدعاء (أدعو) ومنها ما تضمّن دلالته، نحو: (أسأله) وهي كلها تحيل إلى دلالة الدعاء المشتركة،ولن ينتظر السامع طويلا ليدرك ذلك؛بل إن مجرد سماعها أو قراءتها في هذه التراكيب،يجعله يعرف أنها للدعاء دون غيره،لاسيما وأن معظمها يرد في نهاية القصائد.

ولقد توفرت شروط الأفعال الإيقاعية التي حددها الدارسون في هذه الأفعال، من نسبتها إلى المتكلم مفردا أو جماعة، ومن توفر نية القصد والإبلاغ، ودلالتها على زمن الحاضر أو المستقبل.

- أفعال التحية، نحو قوله: [من الخفيف]

عِمْ صَبَاحًا، وَإِنْ غَدَوْتَ خَلاَءَ مِنْ ظِبَاءٍ يَفْضَحْنَ فيكَ الظِّبَاءَ!

[من الكامل]

وَإِذَا مَرَرْتَ عَلَى الدِّيَارِ ،غُدَيّةً إِقْرَا السّلاَمَ عَلَى دِيَارِ «الْهَيْثَمِ»

–أفعال الوصية «الوصية:وهي تمليك مضاف إلى ما بعد الموت،والإيصاء طلب شيء من غيره ليفعله...»[16] نحو قوله: [من مجزوء الكامل]

أُوصِيكَ بِالصّبْرِ الْجَمِيـ ـلِ !فَإِنَّهُ خَيْرُ الوصيّة!

[من الكامل]

هَذِي وَصيّتُهُ إِلَيْكُمْ ! فَافْهَمُوا! يَا مَنْ يَقُولُ بِأَنّ: مَا أَوْصَاهُ !

أَقْرُوا مِنَ «الْقُرْآنِ » مَا فِي فَضْلِهِ ! وَتَأَمّلُوهُ، وَافْهَمُوا فَحْوَاهُ!

لوْ لَمْ تُنَزّلْ فِيهِ إِلاَّ: «هَلْ أَتَى» مِنْ دُونِ كُلِّ مُنَزّلٍ،لَكَفَاهُ

– أفعال الرأي، نحو قوله: [من الطويل]

أَرَى مِلْءَ عَيْنَيّ الرّدَى فَأَخُوضُهُ إِذِ المَوْتُ قُدّامِي وَخَلْفِي الْمَعَايِبُ

فَلستُ أَرَى إِلاَّ عَدُوا مُحارِبًا وَآخَرَ خَيْرٌ منهُ عِنْدِي المُحَارِب

– أفعال النّصح:« وهي إخلاص العمل عن شوائب الفساد»[17] نحو قوله :[من الكامل]

اِحْذَرْ مُقَارَبَةَ اللِّئَامِ ! فَإِنَّهُ يُنْبِيكَ عَنْهُمْ فِي الأُمُورِ مُجَرِّبُ

اِصْبِرْ عَلَى رَيْبِ الزّمانِ فَإِنَّهُ بالصّبْرِ تُدْرِكُ كُلَّ مَا تَتَطَلَّبُ

فالنصح والتوجيه، بإيراد أفعال إنجازية (احذر، اصبر)من قبل الشاعر نابعة من تجربته الشخصية للحياة وكذلك براعته الشعرية التداولية، جعلته يرسل هذه الأفعال المرتبطة بواقعها

الملموس ارتباطا مباشرا(تحذير، توجيه) وحين يرسل الشاعر أفعالها،فإنما يرسلها لإحداث هذه السلوكات وإنجازها.

– أفعال العتاب، نحو قوله: [من البسيط]

لِمَنْ أُعَاتِبْ؟مَا لِي؟أَيْنَ يُذْهَبُ بِي؟ قَدْ صَرّحَ الدّهْرَ لِي بِالْمَنْعِ وَالْيَاسِ

يتساءل عن الجدوى من العتاب ، جاعلاً الدّهر مخاطبه في قوله:(قد صرّح الدّهر لي).

–أفعال الحِكمة « قيل الحِكمة: هي الكلام المعقول المصون عن الحشو، وقيل : هي وضع شيء في موضعه، وقيل: هي ماله عاقبة محمودة»[18] نحو قوله: [من الطويل]

أَلاَ إِنَّمَا الدّنيا مَطِيّةُ رَاكِبٍ عَلاَ رَاكِبُوهَا ظَهْرَ أَعْوَجَ أَحْدَبَا

[من الخفيف]

اِحْمِلِ النَّفْسَ إِنْ أَرَدْتَ لَهَا الْعِزَّ عَلَى تَرْكِ بَعْضِ ما تَشْتَهِيهِ

تشير الأبيات إلى حِكَمٍ؛ ذات منحى خلقي سام، نابعة من تجارب الشاعر في الحياة وعلى المخاطَب الأخذ بها، ليعيش عزيزًا مكرّما في دنياه.

[من السريع]

لاَ تَعْدَمَنّ الصّبْر فِي حَالَةٍ فَإِنَّهُ لَلْخُلُقُ الأَجْمَلُ

[من الطويل]

فَلاَ تَتْرُكَنّ الْعَفْوَ عَنْ كُلِّ زَلَّةٍ فَمَا الْعَفْوُ مَذْمُومٌ،وَإِنْ عَظُمَ الْجُرْمُ!

في البيت الأول حِكمة خلقية تشتمل على تعظيم الصّبر، وفي الثاني تدل على المبادرة بالعفو.

ويقول أيضا: [من الطويل]

وَإِنْ مِتُّ، فَالإِنْسَانُ لاَ بُدّ مَيِّتٌ وَإِنْ طَالَتِ الأَيّامُ، وانْفَسَحَ الْعُمْرُ

–أفعال القَسم:«النحاة العرب لم يدرسوا القَسم بوصفه"معنى" من المعاني ولكن بوصفه "أسلوبا"من الأساليب [...]فعرّفوه بـ"أنه الحلف واليمين"ولم يتجاهلوا أبعاده المعنوية كل التجاهل، وعدّه بعضهم من ضروب الإنشاء الطلبي.

وقسمّوه قسمين :

– قَسَم السؤال (أو الطلب): وهو ما كان جوابه متضمنا طلبا، مثل:بالله لتفعلن كذا وغرضه الإلحاح في الطلب...

– قَسَم الإخبار:وهو ما قصد به توكيد جوابه، مثل: والله ما فعلتُ كذا، أو: والله إني لصادق وغرضه تأكيد الخبر.

فالأول حملٌ للمخاطب على فِعْل أو تَرْك، والثاني إخبارٌ عن أمر وَقع وانقضى، أو وصفٌ له،ويبدو أنّ القَسم بنوعيه، بمعايير سيرل(Searle) مندرج ضمن"درجة الشدة للقرض المتضمن في القول" فهو إذن "تأكيد"»[19]نحو قوله: [من مجزوء الكامل]

قَسَمًا عَلَى صِدْقِ الضّمِيـ رِ، وَلَسْتُ فِيهِ بحانِثِ

[من السريع]

أَ قْسَمْتُ: لَوْ لَمْ يَحْكِهِ ذِكْرُهُ رَجَعْنَ عَنْهُ بِشَبَا ثَاكِلِ

– أفعال اليقين والإدراك «اليقين:رؤية العيان بنور الإيمان.وقيل:ارتفاع الريب في مشهد الغيب.وقيل: العلم الحاصل بعد الشك»[20]أما الإدراك فهو:«إحاطة الشيء بكماله وهو حصول الصورة عند النفس الناطقة، وتمثيل حقيقة الشيء وحده، من غير حكم عليه بنفي أو إثبات،

ويسمى: تصورًا، ومع الحكم بأحدهما يسمى: تصديقًا»[21]

نحو قوله: [من المتقارب]

إِذَا مَا مَرَرْتَ بِأَهْلِ الْقُبُورِ تَيَقَّنْتَ أَ نَّكَ مِنْهُمْ غَدَا

[من البسيط]

أَدْرِكْ بَقِيّةَ رُوحٍ فِيكَ قَدْ تَلِفَتْ قَبْلَ الْمَمَاتِ، فَهَذَا آخِرُ الرّمقِ

ب.الأفعال الطّلبية:

تشمل كل الأفعال الدالة على الطلب، من دون اشتراط صيغة لها، نحو: أمرتُ أوجبت نهيت،... وغرضها الإنجازي هو حمل المخاطَب والتأثير فيه ليفعل شيئا أو يخبر عن شيء. ومن صيغها:

أ- الطّلب بصيغة الماضي، نحو قوله: [من الطويل]

ولَوْ قَدْ رَجَوْتُ اللهَ لاَ شَيْءَ غَيْرُهُ رَجَعْتُ إِلَى أَعْلَى وَأَمّلْتُ أَوْسَعَا

وتعد (رجوت) من أفعال الطلب لما فيها من تحقيق إجابة لدى السامع، فهي تعادل: (طلبت، التمست...) وكل ذلك يقتضي من السامع إتباعه. وكأن الشاعر بذلك يطلب من سيف الدولة افتدائه .

- الطلب بصيغة المضارع، نحو قوله: [من الكامل]

لاَ أَطْلُبُ الرِّزْقَ الذَّلِيلَ مَنَالُهُ فَوْتُ الْهَوَانِ، أَجَلُّ مِنْ مَقْنَاتِه

[من مجزوء الكامل]

أَرْجُو الشَّهَادَةَ فِي هَوَا كَ لأَنّ قَلْبِي فِي جِهَاد

كل من هذه الأفعال (أطلب،أرجو) يقتضي الحكم بشيء في الواقع الخارجي وهو مطابق له في دلالته.

جـ.الأفعال الإخبارية:

يشمل هذا القسم من أفعال الكلام كل الأفعال والعبارات التي تصف وقائع وأحداثا في العالم الخارجي، وغرضها الإنجازي هو أن تنقل هذه الوقائع بأمانة، ولن يتأتى ذلك إلا بتوفر شرط القصد في الإبلاغ. ومن أشكالها في قصائده:

-أفعال الإخبار عن واقع مضى وانقضى، نحو قوله: [من الطويل]

فَتْحنَا أَقَاصِي "أذْرِبِيجَانَ" عُنْوَةً وَقَدْ عَجزَتْ عَنْهَا المُلُوكُ الْمَسَاعِرُ

[من البسيط]

فَكُنْتَ أَكْرَمَ مَسْؤُولٍ وَأَفْضَلَهُ إِذَا وَهَبْتَ فَلاَ مَنٌّ وَلاَ بُخْلُ

كل بيت يعرض وقائع حاصلة في زمن ماض، كما حصلت بترتيب أحداثها(فتحنا، عجزت كنت، وهبت) كما أنها تعرض هذه الوقائع بأمانة.

وفي الأبيات التالية، ورد عرض الوقائع بصيغة الحاضر الدال على الحكاية، كما أنها تحصل الآن على مرأى من السامع، وهو غرضها الإنجازي.

-أفعال الإخبار عن الواقع الحاضر، نحو قوله: [من الكامل]

وَالله يَجْمَعُنَا بِعِزٍّ دَائِمٍ! وَسَلاَمَةٍ مَوْصُولَةٍ بِبَقَاءِ

[من الكامل]

يُعْطِي إِذَا ضَنّ السّحَابُ، تَكَرُّمًا وَيُجِيرُ إِنْ جَارَ الزَّمَانُ الأَنْكَدُ

د .الأفعال الالتزامية: هي أفعال يلتزم بها المتكلم طوعا بفعل شيء ما للمخاطَب في الحاضر أو المستقبل مع إخلاص النية والقصد، وعزمه على الوفاء بذلك ومنها أفعال الوعد الوفاء المعاهدة، الضمان،... وتكون مطابقة الفعل من الواقع الخارجي إلى الكلمات بحيث يُصيغ المتكلم أفعاله بناء على صورتها الخارجية، فإن وعد بالزيارة مثلا فينبغي أن يطابق وعدُه الشروط الخارجية التي يتحقق بها أداء الزيارة في الواقع، وإن تلفظ بذلك فينبغي أن يكون قادرًا على الإحاطة بها وأدائها، ومن أشكالها في الديوان: الوعد والمعاهدة.

–أفعال الوعد والوفاء: وقد اعتبر القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت415ه) أن الوعد من الإخبار، والوعد عنده «هو كل خبر يتضمن إيصال نفع إلى الغير أو دفع ضرر عنه في المستقبل»[22] أما الوفاء فـ«هو ملازمة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخلطاء»[23].

نحو قول الشاعر : [من الطويل]

وَلَوْ أَنَّنِي وَفَّيْتُ رُزْءَكَ حَقَّهُ لَمَا خَطَّ لِي كَفٌّ، وَلاَ فَاهَ لِي فَمُ!

[من الطويل]

تُطَالِبُنِي بِيضُ الصوارِمِ والْقَنَا بِمَا وَعَدَتْ جَدّيّ فِيَّ الْمَخَايِلُ

[من الطويل]

سَنَضْرِبُهُمْ، مادَامَ لِلسَّيفِ قَائِمٌ وَنَطْعَنُهُمْ، مَادَامَ لِلرُّمْحِ لَهْذَمُ!

[من الطويل]

أَ تُوعِدُنَا بالْحَرْبِ حَتَّى كَأَنَّنَا وَإِيّاكَ لَمْ يُعْصَبْ بِهَا قَلْبُنَا عَصْبَا؟

يتميز في أفعال الوعد الواردة في الأبيات، نمطان:

الأول: الفعل المنسوب إلى المتكلم المفرد:(وفَّيت،وعدت) .

الثاني: الفعل المنسوب إلى جماعة المتكلمين:(سنضربهم، أتوعدنا).

وشروط أفعال الوعد الالتزامية أن تدل على الحاضر أو المستقبل، وأن تنسب إلى المتكلم المفرد، لأنه وحده القادر على أداء ما يعد به، وأنه لا يلفظ الفعل إلا إذا كان في إمكانه إنجازه، ولكن هذا المبحث لا يميز بين المتكلم مفردا أو جماعة؛ذلك أن الدّلالات التي تحملها الأفعال المذكورة في النمط الأول هي أفعال تؤدَّى بالاشتراك.وللشاعر (المتكلم)معرفة بمدى قدرة المتكلمين–وهو منهم– على إنجازها:كالحرب على القبائل(نمير،عامر،كعب كلاب)وهو واحد من رجال الوغى وفارسها المحنك ،وهو إن أفضى بهذه الأفعال واعدا فلأنه على علم بتوفر شروط تحقيقها.

أما أفعال النمط الثاني فقد توفرت فيها شروط الفعل الالتزامي، ويعد الشاعر قادرا على إنجازها حال التّلفظ .

– أفعال المعاهدة:يمكن أن تتميز المعاهدة عن الوعد في فرق دقيق، هو أن الوعد عهد من طرف واحد هو المتكلم،أما المعاهدة فهي عهد بين طرفين أو أكثر،والالتزام يقع على الأطراف جميعا، لا على المتكلم وحده، كما في الوعد. ومن شواهد المعاهدة في شعره قوله:
[من الكامل]

وَنَقَضْتُ عَهْدًا كَيْفَ لِي بِوَفَائِهِ! وَسُقِيتُ دُونَكَ كَأْسَ هَمٍّ صَارِدِ

في هذا البيت إشارة إلى حال الشاعر، لكي يفتديه ابن عمّه، وقد وُفِّق الشاعر فيها.

[من مجزوء الكامل]

وَوَفَوْا بِعَهْدِكَ فِي الْهَوَى فَجَزَيْتَهُمْ ظُلْمًا بِهَجْرِكْ!

هـ. الأفعال التعبيرية: تشمل أفعال الكلام التعبيرية كل الأساليب والعبارات التي يعبّر بها المتكلم عن مشاعره، من رضا وحزن، وغضب وسرور، ونجاح وفشل،...كما تتعدى ذلك لتشمل ما يظهر في بنية الخطاب مما يحدث للمشاركين في الفعل ووقعه عليهم أثناء التعبير عن حالة نفسية مثل: الاعتذار، الشكوى، الشكر،...

وأهم شرط لحصول هذه الأفعال هو الإخلاص في إبلاغه، ومن الأفعال التعبيرية المرتبطة بالمتكلم وحده:

– أفعال الحزن، جاء في التعريفات« الحزن: عبارة عما يحصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب في الماضي»[24]

نحو قوله: [من البسيط]

أَبْكِي بِدَمْعٍ،لَهُ مِنْ حَسْرَتِي مَدَدٌ وَأَسْتَرِيحُ إِلَى صَبْرٍ بِلاَ مَدَدِ

[من الكامل]

وَلَقَدْ جَعلْتُ الْحُبَّ سِتْرَ مَدَامِعِي وَلِغَيْرِهِ عَيْنـايَ تَنْهَمِلانِ

تحمل الأفعال التعبيرية(أبكي، تنهمل)في هذه التعابير مضمونات عاطفية،يغلب عليها جانب الحزن الذي يهيمن على الشاعر.وهي من الناحية التداولية تعرض لنا جانبا من شخصه – بعدِّه متكلما–يمكن أن يسهم في بناء صورة كاملة له إذا ما أضفناه إلى إشاريات شخصية أخرى، تتكرر في قصائد الروميات.

– أفعال الرضا«الرضا:سرور القلب بمر القضاء»[25] نحو قوله: [من البسيط]

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا دَائِما أَبَدَا أَعْطَانِيَ الدّهْرُ مَا لَمْ يُعْطِهِ أَحَدَا

[من الوافر]

رَضِيتُ بِحُكْمِهِ فِي كُلِّ حَالٍ هُوَ الْمَوْلَى وَنَحنُ لَهُ عَبِيدُ

أفعال تعبيرية استعملها الشاعر في خطابه للآخر ليبين له قوة إيمانه وصدق حديثه، وطاعته لأوامر حاكمه وإخلاصه له، وهدفه التأثير فيه.

وأما الأفعال التعبيرية المرتبطة بالمتكلم وما يتعلق بالمشاركين في الفعل، فمنها:

-أفعال إبداء الحيرة، نحو قوله: [من البسيط]

يَرْعَى النّجُومَ وَمَا يَنْفَكُّ فِي فِكْرٍ تَنْفِي الرّقَادَ وَتُدْنِي الهمَّ وَالسّهَدَا

[من البسيط]

نَشَدتُكَ اللَّهَ، لاَ تَسْمَحْ بِنَفْسِ عُلاً حَيَاةُ صَاحِبِهَا تَحْيَا بِهَا الأُمَمُ

تسهم أفعال الحيرة أيضا، كما هو شأن الأفعال التعبيرية أساسا، في التعريف بشخص المتكلم (الشّاعر) ولذلك يعدّها الدرس التداولي من أهم الإشاريات الشخصية التي تشير إلى ذات الشاعر ونفسه.

وهو في هذه الأبيات يبدو حائرا، أمام موقفين مختلفين؛ الأول خارجي، غرض فعل الحيرة فيها تذكير مخاطبه بقوة العلاقة بينهما. أما الثاني فهو داخلي، يعرض الحيرة الحاصلة في نفس الشاعر المتأمل فيعرض صورة فريدة للشاعر الشاكي الحيران(يرعى النجوم، تنفي الرقاد، تدني الهم، نشدتك الله) ويبدو من ذلك تعدد أحوال المتكلم الواحد، وتلك هي القيمة التداولية للأبيات كاملة.

-أفعال التّمني« التمني:طلب حصول الشيء، سواء كان ممكنًا أو ممتنعًا.» [26]

نحو قوله: [من الطويل]

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي-هَلْ أَنَا الدَّهْرَ وَاجِدٌ- قَرِينًا،لهُ حُسْنُ الْوَفَاءِ قَرِينُ؟

[من الطويل]

تَمَنَّيْتُمُ أَنْ تَفْقِدُونِي، وَإِنَّمَا تَمَنَّيْتُمُ أَنْ تُفْقِدُوا الْعِزَّ أَصْيَدَ

[من السريع]

مَنْ يَتَمَنّ الْعُمْرَ فلْيَدّرِعْ صَبْرًا عَلَى فَقْدِ أَحِبّائِهِ

وَمَنْ يُؤَجَّلْ يَلْقَ فِي نَفْسِهِ مَا يَتَمَنَّاهُ لأَعدَائِهِ

– أفعال الشّكوى، نحو قوله : [من الطويل]

إِلَى اللهِ، أَشْكُو عُصْبَةً مِنْ عَشِيرَتِي يُسِيئُونَ لِي فِي الْقَوْلِ،غَيْبًا وَمَشْهَدَا

[من الطويل]

إِلَى اللهِ،أَشْكُو مَا أَرَى مِنْ عَشَائِرٍ إِذَا مَا دَنَوْنَا زَادَ جَاهِلُهُمْ بُعْدَا

الشّاعر يشكو الإساءة في القول من عشيرته وشيوع الجهل في بعضها.

– أفعال التّحسر«الحسرة:هي بلوغ النهاية في التلهف، حتى يبقى القلب حسيرًا لا موضع فيه لزيادة التلهف،كالبصر الحسير، لا قوة فيه للنظر»[27] نحو قوله: [من الوافر]

أيَا أُمَّ الأَسِيرِ، سَقَاكِ غَيْثٌ بِكُرْهٍ مِنكِ، مَا لَقِيَ الأَسِيرُ!

أيَا أمّ الأسيرِ، سقاك غَيثٌ تَحَيَّرَ، لاَ يُقِيمُ وَلا يَسِيرُ!

أيَا أمّ الأسيرِ، سقاك غَيثٌ إِلَى مَنْ بِالْفِدَا يَأتِي البَشِير؟

أيَا أمّ الأسيرِ، لِمَنْ تُرَبّى وَقدْ مِتِّ، الذَّوَائِبُ وَالشُّعُورُ ؟

ساهمت السِّين في تجسيد حالة نفسية، يائسة، باكية، لازمته إلى أن قضى نحبه.

-أفعال الوصف « الوصف :عبارة عما دل على الذات، باعتبار معنى هو المقصود من جوهر حروفه، أي: يدل على الذات بصفةٍ، كأحمر، فإنه بجوهر حروفه يدل على معنى مقصود،وهو الحمرة، فالوصف والصفة مصدران، كالوعد والعدة.والمتكلمون فرقوا بينهما فقالوا:الوصف: يقوم بالواصف، والصفة: تقوم بالموصوف وقيل: الوصف هو القائم بالفاعل.»[28]

نحو قوله: [من البسيط]

يا طَلْعَةَ الشَّمْسِ، لَمَّا صَادَفَتْ حُلَلاً مِنَ السّحَابِ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الزّهَرِ

بَدَرْتِ، وَالبَدْرُ نَحْوَ الشَّمْسِ فِي خَطَرٍ فَجِئْتِ،قَامِرَةً، يَاطَلْعَةَ الْقَمَرِ!

وصف الشّاعر الشّمس، بأنها قامرة، تشرئب إليها الأعناق، وتبعث في النفس والقلوب انشراحا، وارتياحا.

- أفعال الشّكر«الشكر:عبارة عن معروف يقابل النعمة، سواء كان باللسان أو باليد أو بالقلب. وقيل:هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه،فالعبد يشكر الله، أي:يثني عليه بذكر إحسانه الذي هو نعمة، والله يشكر العبد؛أي يثني عليه بقبوله إحسانه الذي هو طاعته»[29]

نحو قول الشاعر: [من الطويل]

وَإِنْ يَجْفُ فِي بَعْضِ الأُمُورِ فَإِنَّنِي لأَشْكُرُهُ النُّعْمَى الَّتِي كَانَ أَوْدَعَا

[من السريع]

رَفِّهْ بِقَرْعِ الْعُودِ سَمْعًا،غَدَا قَرْعُ الْعَوَالِي جُلَّ مَا يَسْمَعُ

لم يرِد فعل الشكر في البيت الثاني بالصيغة الصريحة للفعل (أشكر) ولكن في المعنى الضمني وتكرار لفظ (السمع) ينبئ بأنّ أعظم ما يهز النفس هو الكلام المسموع، فالسمع نعمة عظمى توجب دوام الشكر،وفي البيت الأول ورد فعل الشكر بالصيغة الصريحة للفعل (أشكر) الذي يقتضيه الفعل الكلامي،وما يميز الأفعال التعبيرية (الحيرة، التمني، الشكوى، التحسر، الشكر) عن الأفعال التعبيرية السابقة (الحزن، الرضا) في أنها - تداوليا - لا تتعلق بالمتكلم وحده، ولا تعبر عن عواطفه ومشاعره وحده، بل تتعدى ذلك لتشمل ما يرتبط بالمخاطبين؛ فالحيرة

والتحسر والشكوى والشكر؛كل منها يكون له تأثير على المخاطَب، وينتظر الشاعر(المتكلم) مشاركة المتلقي في أدائها،كما تحتاج أفعالها إلى حضور المخاطَب؛لأنه طرف ضروري في حصولها.

نستخلص من الاستراتيجية التخاطبية التي اعتمدها الشاعر في قصائده وخاصة في ما يعرف بالروميات، حرصه القوي على التواصل السليم مع الآخر ومحاولة التأثير فيه، وفق منحى تداولي ايجابي؛ نتيجة استعمال أفعال كلامية غير المباشرة ومراعاة لمواقف تواصلية فرضت أفعالا متضمنة في القول استمدت قوتها الإنجازية من السياق الذي وردت فيه،مما جعلت العلاقة أكثر حميمية بين المتخاطبين ، وهو ما يُعرف تداوليا بـ(مبدأ التعاون) الذي نتجت عنه علاقة وطيدة دفعت سيف الدّولة إلى افتداء الشّاعر وإخراجه من سجن الرّوم.

الهوامش والإحالات:

—

-القرآن الكريم.

1 – الجرجاني(عبد القاهر)،: أسرار البلاغة في علم البيان، دار الكتب العلمية،ط1،بيروت،لبنان،1988 ص101.

2 – عمر (بلخير)،:تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية،منشورات الاختلاف،ط1،الجزائر العاصمة 2003م، ص102.

3 – المرجع نفسه، ص .102

4 –خليل(الدّوَيْهي)،ديوان أبي فِراس الحَمداني،دار الكتاب العربي،ط2، بيروت،لبنان،1994م،ص95.

5 -المرجع نفسه ، ص95.

6 – عمر (بلخير)،: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص103.

7 –المرجع نفسه، ص103.

8 – أبو حامد الغزالي: إحياء علو م الدين، ،تحقيق الإمام حافظ العراقي،دار الثقافة، ج1، ط1، الجزائر، 1991م، ص255. *–الهاء في (جملتها) تعود على ما أسماه:آفات اللسان.

9 – المرجع نفسه، ص255.

10– عمر (بلخير)،:تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص106.

11 – المرجع نفسه، ص 111.

12– ذهبية(حمو الحاج)،لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب،منشورات تحليل الخطاب،جامعة تيزي وزو،دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،2005م.، ص 124 .

13 – المرجع نفسه ، ص 124 .

14 – عمر (بلخير)،: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ص112.

15 – الشريف علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني: التعريفات، تحقيق:نصر الدين تونسي،شركة القدس للتصدير،ط1،القاهرة،مصر،2007 م، ص 182.

16 – المرجع نفسه ،ص 405.

17 – المرجع نفسه ، ص 381.

18 – المرجع نفسه ، ص 154 .

19 – مسعود (صحراوي)،التداولية عند العلماء العرب،دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي،دار التنوير للنشر والتوزيع،ط1، حسين داي،الجزائر،2008م، ص256.

20 – الشريف الجرجاني: التعريفات، ص412.

21 – المرجع نفسه، ص33.

22 – مسعود (صحراوي)،: التداولية عند العلماء العرب، ص179–180.

23 – الشريف الجرجاني: التعريفات، ص 406.

24 – المرجع نفسه ، ص147.

25 – المرجع نفسه ، ص185.

26 – المرجع نفسه ، ص 115.

27 – المرجع نفسه ، ص147.

28– المرجع نفسه ، ص404.

29 – المرجع نفسه ، ص211 .

<u>مراجع إضافية:</u>

1– أوستين (جون)،نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام) ترجمة:عبد القادر قنيني،إفريقيا الشرق،الدار البيضاء، المغرب،1991م.

2–جاك موشلر،آن ريبول،القاموس الموسوعي للتداولية،ت:مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عزالدين المجدوب،تونس،2010م.

3–حافظ اسماعيلي علوي،التداوليات علم استعمال اللغة،عالم الكتب الحديث،ط1،اربد،الأردن،2011م.

4– سيرل(جون):العقل واللغة والمجتمع،ترجمة:سعيد الغانمي،منشورات الاختلاف،ط1،بيروت،لبنان،2006م

5– صابر (محمود حسن الحباشة):أسئلة الدلالة وتداولية الخطاب،مقاربة عرفانية تداولية،دار زهران للنشر والتوزيع ط1، عمان، الأردن، 2010م.

6– صابر (محمود حسن الحباشة):الأبعاد التداولية في شروح التلخيص للقزويني،الدار المتوسطية،ط1 تونس،بيروت،2010م.